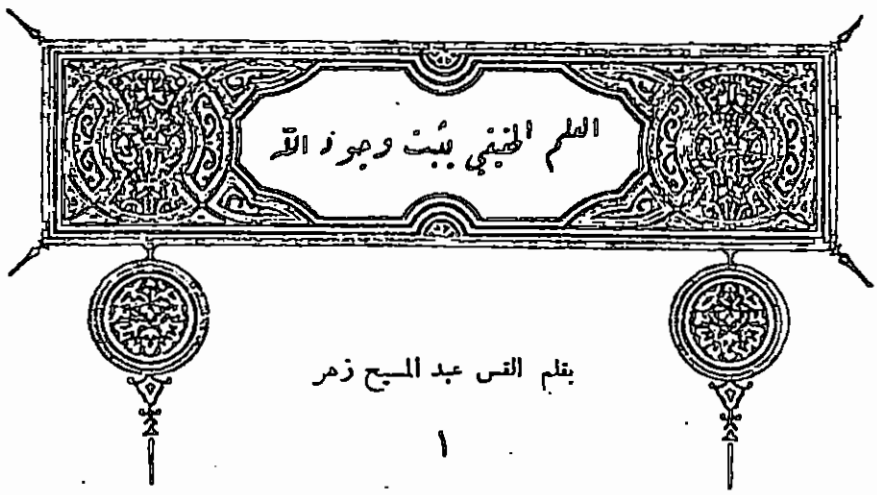

بقلم القس عبد المسيح زهر

١

ان اعتقاد وجود اله يكافئ الخير ويجازي الشرّ اعتقاد عامّ شامل كل الازمان والاماكن والشعوب والامم والقبائل المنبثة على وجه البسيطة . وقد اقرّ هذا الاعتقاد التاريخ ، واثبته العلم ، وتحققه الجوّالون في اسفارهم ورحلاتهم ، وتمسك به النظّار والعلماء واصحاب القلوب ، على مرّ الازمان واختلاف البلاد والاوطان . نعم ان معرفة الاله قد تشوّهت عند بعض الشعوب ، وظهرت في مظاهر متباينة متنوّعة ، وذلك لشدة ما علق بالعقول من الاوهام ، وتعارض المذاهب في تعيينه وتعريفه وتسميته ، ولكن هذا الضلال على طغيانه لم يستطع طمس ودرس ذكر الاله من الافئدة ؛ حتى ان القبائل المتبدّية المتوحّشة اعتقدت وجوده اسوة بالشعوب المتحضّرة المتمدّنة ؛ وآمن به الامم الخالية كما تؤمن به اليوم الامم الباقية . ولما كان هذا الاعتقاد راسخاً كل الرسوخ ما استطاع الكفر ، بالرغم من شدة حملاته ، نزعه من القلوب . قال روبسبير : « ان الامة تعتقد وجود الكائن الاعظم . » على انه ، وان زاد عدد الكفّار في الاجيال الاخيرة ، واجتهد المعطّلون في نسف صرح الدين ونفي الله من المجتمع ، فما زال المؤمنون بالله الاكثر عددًا حتى انك لا تجد في المئة كافرًا واحدًا بالحقيقة وحصر المعنى . قال جول سيمون العقليّ : « لستُ تجسر على عدّ كافر واحد بين مئة اب عائلة . »[1] بل ان مصنفات اكثر العلماء ، حتى الكفار منهم ، حافلة بذكر الله والدين بالرغم

[1] Jules Simon, *L'école*, 1885.

من مطاعن اهل الكفر والضلال . ولله در كاترفاج اذ قال :« ان الكفر حيثما حلّ يكون متقلقلاً غير ثابت . وقد نجا من غائلته اكثر شعوب الارض في كل مكان وزمان اذ انه ما من سلالة كبيرة من السلالات البشرية بل ما من طائفة منها كافرة .»[1] وقال القديس توما الاكويني :« من المستحيل ان يكون باطلاً امر قد اجمع عليه البشر . وفي الحقيقة ان الرأي الضالّ منسوب الى ضعف العقل لا الى طبيعة العقل نفسه . فمن خاصيات هذا الرأي ان يكون عرضيًّا ، وما كان عرضيًّا لا يكون عامًّا . اذن في امور الدين وحسن الاخلاق لا يمكن على الاطلاق ان يكون باطلاً الحكم الذي يستصوبه جميع البشر ويتفقون عليه . »[2]

على ان بعضهم نسبوا اعتقاد وجود الله الى التربية . وكان الامام الغزّالي قصد الى هذا المعنى حين قال :« كل مولود يولد على الفطرة ، فابواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه .»[3] فكأنّ الوالدين هم العامل الاولي على زرع بذر المعتقد في نفوس اولادهم . لسنا ننكر ان للتربية تأثيرًا في تلقين الافكار وزرعها في العقول منذ الصبا وطراءة السن ؛ والتجربة والاختبار اصدق دليل على صحة هذا القول ، ولكن التربية لا تستطيع وحدها خلق الافكار وانماءها وتركيبها؛ ومهما كانت كاملة تعجز عن تعليل اعتقاد البشر وجود اله . فيلزم من ذلك ان تكون نتيجتها اوهاماً تعلق وتسدك بالعقول . والحال ان الوهم من شأنه الحؤول والتغيّر على ممرّ الازمان وتعاقب الاجيال . اما اعتقاد الاله فما زال ضد فطرة الانسان الاول الى وقتنا الحاضر ثابتاً في كل آن وزمان ، مؤيّداً بحجج افاضل العلماء والنظار . فلو كان محض وهم لدثر على توالي الاجيال ، ونسخه من العقول العلماء الذين قاموا في كل الشعوب على كرور الاعصار .

وذهب غيرهم الى ان اعتقاد وجود الله منشؤه الخوف . قال لكرسيوس كاروس :« ان الخوف الاول احدث الآلهة في العالم . » وذلك ان البشر لما رأوا الحوادث الغريبة التي تجري في الطبيعة ، ولا يعلمون اسبابها ، نسبوها الى

١) النوع البشري الفصل ٣٥ ٢) ضد الامم ٣ : ٢٤

٣) ميزان العمل ، وجه ٦٠

كان سام ، فانتشر وتفشى اعتقاد وجود الاله .» ولكننا نسألهم ان يشرحوا لنا كيف سرى هذا الاعتقاد وتسرب الى شعوب الارض كافة على اختلاف نزعاتها ، فتيقنوا وجود اله صالح رحيم ؟ بل كيف تحققت القبائل المتوحشة الغارقة في لجج الجهل وجود اله يحييها ويقيها ضير الارواح الشريرة التي تطلب الحاق الضرر بها على الدوام ؟ فلو كان اعتقاد الله ناشئاً عن الخوف لزال هذا الخوف وانمحى على توالي الازمنة ، ولاسيما بعد ما عرف العلماء اسباب الخوارق الطبيعية . فكان في طوقهم ان يزيلوا بالتدريج هذا الخوف من القلوب . بيد ان العلماء انفسهم ، على وجه الاجمال ، قد عززوا هذا الاعتقاد وزادوه رسوخاً في القلوب كما سنرى من شهاداتهم .

وادّعت فرقة ان الدين من اختراع المشترعين والكهنة حملاً للرعايا على مراعاة السنن والشرائع وجراً للمنافع والمغانم . فاذا كان ساسة الامم والمشترعون ادركوا تأثير المعتقد في مراعاة النظام وحفظ الشرائع والسنن ، وكان منذ القديم كهنة ، فهذا دليل على ان الدين كان قبل المشترعين والكهنة . فاذن هم ما اخترعوه بل كان قبلهم موجوداً .

وزعمت فرقة اخرى ان البشر من عند آخرهم غلطوا في مسائل كثيرة . أما اعتقدوا دوران الشمس وثبوت الارض ؟ فاعتقادهم وجود الله من هذا القبيل . ولكن شتان ما بين الغلطين ! الغلط الاول لا تعلّق له بحياة البشر الادبية وغايتهم وسعادتهم . اما الغلط الثاني فضرّ لهم في اهم مصالحهم المتوقف عليها شقاؤهم او راحتهم وسعادتهم . فاذن ليس في امكان كائن من كان ردّ الشهادات التي اجمع عليها النوع البشري واكابر العلماء والنظار وارباب القلوب .

اكثر العلماء اعتقدوا وجود الله

ان البشر على وجه العموم اعتقدوا دائماً في كل الاحوال والازمان وجود الله . ولكن قد قام فيهم من اغمضوا اعينهم واصموا آذانهم لئلا يروا ويسمعوا الحق . على ان كفر هؤلاء الاشقياء ليس بدليل على تعمقهم في العلم ومعرفتهم ما لم يعرف غيرهم ، بل هو منسوب غالباً الى افراطهم في الفواحش والخبائث ،

٢ً اما الوحي وما له من التعاليم المدوّنة في الكتب المقدسة فهم رف من قذاه عنها بالاجتهاد والتفسير ، فقد نجسه ابن طفيل حقه اذ جعله دونهم بذنوبهم ، ويباقيهم مرتبةً ونفوذًا . والفلسفة عنده ليست « خادمة » لعلم اللاهوت كافر بالله الا ويطلق مستقلة بذاتها ومقصودة لذاتها، كونها بذاتها طريقة الاتصال بالله. ورؤية انسان مقتصد واذا فطن القارئ اللبيب الى كيفية نشأة حيّ بن يقظان وتعلما الانسان اذا تكلم بلوغه الكمال والاتحاد بالله ، لا بمعرفة الكتاب والشريعة بل[٢] وفطرته ، فهم مرامي واغراض ابن طفيل من عرضه شخصية حفاف الله ، فلن نشك تجاه اسال ، الرجل الذي عرف الكتابة « والملة » ولم يستطع ، والمشي في طرق الكمال با تعلمه منها ، ولكن باقتدائه بحيّ بن يقظان « حتى نير السلطة ، وقراءة حقائق الامور ، كل كاد » .

فنتيجة البحث اذن ، على رأي ابن طفيل ، هي ان العقل ، هوى الكفر . قال على معرفة الله ولا تناقض بين الدين والفلسفة ، وان ذلك لصحاشباب والانقباض من معرفة الله الفلسفية اسمى من المعرفة الدينية المكتسبة من الغير مثلي يعترفون ، ان ذلك بصحيح ولم يجرأ ابن طفيل على التصريح به ، ولكنه به الشديد المضيق على حيّ بن يقظان . وقد تضاربت آراء المسلمين في صحة هذا منها اقامة البراهين عقدة من العقد التي حاولوا حلها في مدارسهم الفلسفية . وتفر طها سيله ، وبلغت حلها وهي التي صارت سبباً لاضطهاد الفلاسفة بينهم .

وباقي القصة مصداق للتأويل الذي سبق . لان سلامان ورسلماء المتهوسين بالعلوم الى الفهم والذكاء من جميع الناس ومع ذلك فلما قصد حيّ الاشياء مجردة عن يعلمهم طرق الكمال عجز وكان عن تعليم الجمهور اعجز ». فاضه الحثة . فاذن الكفر على خلاف ذلك عند عنهم والعودة الى جزيرته .

٣ً اما بلوغ حيّ بن يقظان الاتصال بالله طبقاً للوصف الذي . فمن هولاء القوم طفيل فله وجهان : فوجه الصواب ان الله قد عين على الانقياء الـ« اني اقسم لكم ان بنعمة تبررهم وتوهلهم الى الاتحاد به. فينالون بنعمته البر والاتحاديا. القلب اذ لا ارانى من لدنه تعالى . وقد يبلغون بفضل تلك النعمة درجات من *Caractères*, ويعرفون الله معرفة فائقة ، سرية ، كمعرفة القديسين ، من غير

ناقصاً اذا اعتقدت ما اعتقد بسكال وراسين وبوسويه . فانا متواضع او اني اجتهد في تحصيل التواضع ... اعلموا اني اعرفكم واحبكم واحب القديسين والكهنة والراهبات ... ولكني لست بقادر ان اتمدى هذه الطاقة .»[1]

لا ريب اذن انه قام على ممر الازمان في المجتمع البشري اناس عرفوا بذكائهم وتفوقهم في العلوم ، واعتقدوا وجود كائن اعظم ابدع العوالم المنظورة وغير المنظورة بقدرته وقوته ، وهو علة العلل وبارئ المبروءات . فمن الاقدمين هوميروس وشيشرون وثيرجيل وسوفكل وسقراط وكزنفون وافلاطون وارسطاطاليس وجالينوس الطبيب . فهذا بعد تسريحه يد رجل صاح من فوره : « اني بعملي هذا ما صنفت كتاباً بل اشدت بنشيد اكراماً للاله .»

واذا عجنا بالفكر على الازمنة التي مضت بعد مجيء السيد المسيح ، له المجد ، استطعنا ان نذكر اثناغوراس ، ويوستينوس الشهيد الذي اشتهر بدفاعه عن الدين المسيحي ، وايريناوس اسقف ليون ، وارنوب المدافع والمؤرخ ، واقليمس بدر مدرسة الاسكندرية الزاهر ، وترتليانوس الفقيه المدافع ، واوريجنس الذي لم يستطع احد ان يشق غباره ويلحق آثاره ، واوسابيوس ابا التاريخ الكنسي ، ومينوسيوس فليكس الفصيح ، ولكتنس ، وقبريانس ، وغريغوريوس اسقف قيصرية الجديدة ، وكيرلس الاسكندري ، وباسيليوس القيصري ، واثناسيوس ، وغريغوريوس النزيزي ، ويعقوب النصيبيني ، وافرام السرياني ، واسحق ، ويوحنا فم الذهب ، وامبروسيوس ، واوغسطينوس ، وايرونيمس ، وهيلاريوس ، وغريغوريوس الكبير ، وكسيدروس ، واجينارد مستشار كارلس الكبير ومؤرخه الشهير ، ورابان مور رئيس اساقفة ميانس ، ويوحنا سكوت اللاهوتي ، وهينكمار رئيس اساقفة رمس ، وفلودوارد مؤرخ كنيسة رمس ، وغريغوريوس اسقف تور اول مؤرخي الافرنج ، وانسلمس العلامة اللاهوتي ، والبرتس الكبير الفيلسوف واللاهوتي ، وتوما الاكويني شمس المدارس ، ويونوتورا العلامة السرافي ، وبوسويه الخطيب المصقع والكاتب المجيد ، وفنلون مؤدب دوق بورغونية ، وكوبرنيك الفلكي الشهير الذي وضع

(١) Jules Lemaitre, *Les contemporains*, 6e *série*, *p.* 73.

كتاباً برهن فيه على دورة الارض على نفسها وحول الشمس، وباكون الملقب بالعلامة العجيب ، وغليله مكتشف نواميس الثقل والقائل بدوران الارض حول الشمس، وكبلر الفلكي الشهير مكتشف نواميس سير السيارات، وديه كارت الفيلسوف ، وپسكال البارع بالهندسة والكاتب الشهير ، ومليرانش الكاتب الفيلسوف، ونيوتن الفلكي والرياضي والطبيعي مكتشف شرائع النور والبصر والتجاذب ، وليبنتز الفيلسوف الرياضي ، واولر الرياضي الذائع الصيت ، وآخرين كثيرين من فحول العلماء يطول بنا الشرح اذا اردنا عدّهم .

هذا وان الحكيم دنرت (Dennert) الالماني البروتستنتي عدّ ٣٠٠ من العلماء الذين عاشوا في القرون الاربعة الاخيرة ، وقد اختار هذا العدد من بين جهابذة اهل النظر الذين نالوا القدح المعلّى في انواع العلوم والمعارف الطبيعية ، والرياضية ، والفلكية ، وطبقات الارض ، والنبات ، والتشريح وغيرها . فكانت زبدة مخضه انه وجد ٢٤٢ يؤمنون بالله ، و ٣٠ معطّلين او غير مبالين بامر الدين ، و ٣٨ ما عرف لهم مبدأ . النتيجة ان ٩٢ بالمئة من العلماء يؤمنون بالله . واكثرهم كان متمسكاً بعقيدته اشد التمسك [1] . ثم وجّه هذا الكاتب نظره الى الجيل التاسع عشر خصوصاً ، واغرق في البحث والتنقيب عن احوال علمائه المحققين ، فعدّ ١٦٣ عالماً وجد ١٢٤ منهم مؤمنين ، و ٢٧ آراؤهم الفلسفية غير معروفة ، و ١٢ كافراً كتينـدال وهوكسلي ومولسكوت وڤوغت وبوخنر ، او غير مبالين بامر الدين مثل اراغو وغويت ودروين [2] .

فمن هذا يُستدل على ان مشاهير العلماء الذين يُرجع اليهم في اهم المشكلات ، ويُستصبح بضوء آرائهم في المعضلات ، كانوا مؤمنين بالله . نعم انهم كما قال رنان : « غيّروا اساس العقل البشري بتغييرهم تصوّر الكون وشرائعه » [3] ، ولكنهم بالرغم من ذلك اقروا بوجود الله وعرفوه ربّاً وخالقاً ومدبّراً لهذا الكون الذي تحار في حسن نظامه اكبر العقول والبصائر .

---

(١) *Cours d'apologétique chrétienne, par le* P. W. Devivier *s. j. Paris*, 1914.

(٢) *Die Religion der Naturforscher, Berlin 1906.*

(٣) *Revue des Quest. scientif.*, 1901, *p.* 66.

(له صلة)